

الصِّلاتُ التَّقافِيَّةُ بينَ الإمارةِ الأمويَّةِ في الأندلسِ وبلادِ المغربِ والمشرقِ
(138-316هـ/756-928م)⁽¹⁾

Cultural Links between Umayyad Emirate in Al-Andalus and Both
Al-Maghreb and Al-Mashreq (138-316A.H/756-928A.D)

معالي ياسين، وعامر القُبَّج**

Maali Yasin & Amer Al-Qubbaj

**قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين

** الباحث المراسل: amer.qobbaj@najah.edu

تاريخ التسليم: (2017/10/25)، تاريخ القبول: (2018/2/8)

ملخص

يتناول هذا البحث الصِّلاتِ التَّقافِيَّةِ بينَ الأندلسِ خلالَ عصرِ الإمارةِ الأمويَّةِ (138-316هـ/756-928م)؛ وبينَ أقطارِ العالمِ الإسلاميِّ في المغربِ والمشرقِ، وبخاصَّةٍ معِ بداياتِ تبلورِ الشَّخصيَّةِ الفكريَّةِ والتَّقافِيَّةِ الأندلسيَّةِ ونضوجها في العصرِ المذكورِ. وتبيِّنُ الدِّراسةُ سُبُلَ التَّواصلِ والتَّأثيرِ التَّقافيِّ بينها وبينَ تلكِ الأقطارِ، وعُدَّتِ الرِّحلةَ منَ أهمِّها، واستعرضتْ أيضاً مظاهرَ الصِّلاتِ العلميَّةِ بينها وبينَ بلادِ المغربِ، والعلاقةَ بينَ مدرسةِ قرطبةِ ومدرستيِّ فاسِ والقيروانِ. ولمَّا كانتِ الحجازُ منبعَ العلومِ الدينيَّةِ؛ فقد اتَّجهَ الأندلسيُّونَ إلى مُدنه ونقلوا علومَها إلى بلادهم، فانتشرَ عندهم مذهبُ مالكِ بنِ أنسٍ. كما تأثَّروا بنُظمِ الشَّاميينَ ومدارسهم وعلومهم الدينيَّةِ والأدبيَّةِ. وشكَّلتِ مصرُ محطةَ مهمَّةً منَ محطاتِ انتقالِ المؤثراتِ المشرقيَّةِ إلى بلادِ المغربِ، ومنَ ثَمَّ إلى الأندلسِ. وأنتتِ الدِّراسةُ أيضاً على الصِّلاتِ العلميَّةِ والتَّقافِيَّةِ الأندلسيَّةِ معِ العراقِ، لما تمثَّلهُ بغدادُ منَ وزنِ علميِّ وتَّقافيِّ عالميِّ، كما نقلَ العُلَماءُ الأندلسيُّونَ إليها ألواناً منَ مظاهرِ الحضارةِ الأندلسيَّةِ، وبخاصَّةٍ علومِ الفلسفةِ والمنطقِ، فأسهَمَ ذلكُ كلهُ في إثراءِ الحضارةِ في مختلفِ أقطارِ جناحيِّ العالمِ الإسلاميِّ.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، عصر الإمارة الأمويَّة، المغرب، المشرق.

(1) هذا البحثُ مسنَّبٌ منَ رسالةِ الماجستيرِ للطالبةِ ياسينَ معاليَ محمَّدَ عليَ بعنوان: الأوضاعِ العلميَّةِ في الأندلسِ خلالَ عصرِ الإمارةِ الأمويَّةِ، وعلاقتها معِ بلادِ المغربِ والمشرقِ (138-316هـ/756-928م)، والتي تمَّ مناقشتُها في جامعةِ النجاحِ الوطنيَّةِ في العامِ 2017م.

Abstract

This research deals with scientific links between Al-Andalus during Emirate Era (138-316 A. H / 756-928 A. D) and the countries of the Islamic world in Al-Maghreb and the Levant, especially with the beginning of the crystallization and maturity of intellectual and cultural personality in Al-Andalus. The study shows ways and means of communication and cultural impact between Al-Andalus and those countries, and considered the trip to be one of the most important of these ways. It also reviewed the manifestations of the scientific links between Andalusians and Al-Maghreb countries, and the relationship between the school of Cordoba and the schools of Fez and Kairouan. As Hijaz was source of religious sciences; Andalusians went there and transferred Hijazian sciences to their country, therefore; the doctrine of Malik spread in their country. Andalusians were also influenced by the systems of the shamids, their schools, religious, literary sciences and arts. Egypt formed an important station for the transfer of Oriental influences to the Maghreb and then to Andalusia. The study also focused on the scientific links with Iraq, since Baghdad represented a global scientific and cultural value, and the Andalusian scientists transferred to Baghdad many aspects of civilization, especially the sciences of philosophy and logic. This contributed to enriching Islamic civilization in different countries in the two wings of the Islamic world.

Keyword: Al-Andalus, Umayyad Emirate Era, Al-Maghreb, Al-Mashreq.

مقدمة

لقد حثَّ الإسلام على طلب العلم والسَّعي في تحصيله، تأكيداً على تكريم الإنسان، واحتراماً لعقله، وتمييزاً له على سائر المخلوقات. واتَّضح ذلك من خلال العديد من الآيات القرآنيَّة، وفي مقدِّمتها الآيات الأولى التي تنزَّلت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [سورة العلق، 1-5]، ورُوي عن الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهَّل اللهُ به طريقاً إلى الجنَّة)⁽¹⁾. ومما يُلاحظ أنَّ الدِّين نفسه يدعو إلى تحصيل

(1) الغزالي، إحياء علوم الدِّين، ص15، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

العلم والمعرفة، لما فيهما من تهذيب للنفس البشرية وتشريف لها⁽¹⁾. ويمكن القول أنّ الحضارة الإسلامية ما كان لها أن تصل إلى ما وصلت إليه من تقدّم وازدهار؛ لولا السعي إلى تحصيل العلم وشدّ الرّحال إليه أينما وجد، فعُدّت الرّحلة من أهمّ سبل تحصيله، وفي هذا الصّدّد أشار ابن خلدون (ت. 808هـ/1406م) إلى أهميّة الرّحلة في إثراء المعرفة، فذكر أنّ من بين أسباب زيادة علمه بأخبار ملوك العجم ودول التّرك؛ رحلته إلى المشرق⁽²⁾.

وانطلاقاً من الحرص على اكتساب المعارف والتزوّد بالعلم؛ سلك العلماء وطلبة العلم كلّ الوسائل التي تعينهم على بلوغ ذلك الهدف، وتحملوا من أجله ضروراً من المشقّات، وتنقلوا بين مراكز العلم من الصّين شرقاً إلى الأندلس غرباً، وأفادوا من علماء بغداد ومكّة والمدينة والقيروان وقرطبة⁽³⁾، وأسهم ذلك في إثراء العلاقات الدّقافيّة والعلميّة المتبادلة بين مختلف الأقطار الإسلاميّة. ولم تكن بلاد الأندلس، وبخاصّة في عصر الإمارة الأمويّة، بمعزل عن ذلك كلّ، إذ كان من الطّبيعي أن يتبادل الأندلسيون العلاقات والصّلات الدّقافيّة والعلميّة مع مختلف أنحاء العالم الإسلامي، متأثّرين بالفسيفساء الفكرية التي سادت تلك الأنحاء، فأتجه الأندلسيون في العصر المذكور إلى بلاد المغرب والمشرق، فتأثّروا من الأخيرة على وجه الخصوص أيّما تأثّر، وكان لهم بالمقابل بصماتهم الواضحة في كثير من الميادين الدّقافيّة والعلميّة⁽⁴⁾.

ويعود تطوّر الحركة الدّقافيّة في الأندلس إلى الاستقرار السّياسي الذي ساد جنبات الإمارة الأمويّة منذ بدايات تأسيسها على يد الأمير عبد الرّحمن الدّاخل (172-138هـ/756-788م)، وإلى تأثّر الأندلسيين بالحضارة المشرقيّة، أضف إلى ذلك شوقهم إلى المشرق، مركز البيت الأموي ومهد تاريخهم، ورغبة أمرائهم الجامحة في بعث ماضي هذا البيت وتاريخه الزّاهر، وحضارته المجيدة في دمشق. وعلى الرّغم من التّناسف الشّديد بين العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس؛ فإنّ الأواصر الدّقافيّة بين الجانبين المشرقي والمغربي لم تنفصل، ولا أدلّ على ذلك من قيام الأمير هشام الرّضّا (180-172هـ/788-796م) بإرسال العلماء إلى المشرق وبخاصّة إلى العراق، والعودة إلى الأندلس، حاملين معهم الكتب والمصنّفات في مختلف المجالات⁽⁵⁾.

وكان علماء الأندلس يرون في الرّحلة إلى المشرق وأخذهم عن شيوخه تشريفاً وفخراً بين علماء بلدهم، وعلى العكس من ذلك؛ كان بقاء العالم في وطنه والاكتفاء بتلقّي العلم على شيوخ بلده دليلاً على قصوره عن إدراك ما ناله الآخرون ممّن كانت لهم رحلة خارج بلاد الأندلس، وأتاحت لهم الفرصة للقاء العلماء والأخذ عنهم مشافهة⁽⁶⁾. بل أنّ العالم منهم إذا لم تكن له رحلة؛

(1) العامري، محمّد، مظاهر الإبداع الحضاري في التّاريخ الأندلسي، ص244؛ الهروط، بلال، صور الآخر في أدب الرّحلات الأندلسيّة، ص30.

(2) رستم، محمد، الكتب المشرقيّة والأصول النادرة في الأندلس، ص179.

(3) مصطفى، كمال السّيد، تاريخ مدينة بلنسية الأندلسيّة في العصر الإسلامي، ص289.

(4) يوسف، عواطف، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص71.

(5) الفيومي، محمّد، تاريخ الفلسفة الإسلاميّة في المغرب والأندلس ص100.

(6) دنون طه، عبد الواحد، دراسات أندلسيّة، ص191؛ رستم، ص9.

كان يُعاب لديهم، وكأنَّه بذلك قد لحقه نقص كبير في مكانته العلميَّة، والمقصود بذلك أنَّ هناك فرقاً بين من كابدوا الصَّعاب في سبيل التزوُّد بالعلم وتنويع مصادر التَّقافة لديهم؛ وبين أولئك الذين لم يبرحوا أوطانهم واكتفوا بالقليل⁽¹⁾، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول المَلَكات العلميَّة ورسوخها⁽²⁾.

ولعلَّ من أهمِّ سبل التَّواصل التَّقافي والعلمي؛ موسم الحج - وإن كان موسماً دينياً- الذي كان يعدُّ بمثابة ملتقى ثقافي جامع للمسلمين على الرَّغم من اختلاف بلدانهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغاتهم، ففي هذا الموسم كانت تُعقد في رحاب المسجد الحرام والمسجد النَّبوي حلقات الوعظ والإرشاد، وتُقام مجالس العلم والأدب، فكثرت رحلات الأندلسيين إلى المشرق الإسلامي في هذا الموسم، للتَّفقه في الدِّين، وأخذ العلم من مصادره ومشاربه، وكان العالم يشرف بين بني قومه حين يروي أو يسند إلى شيوخ الحجاز وبغداد وغيرها من بلدان المشرق الإسلامي، لذا لم تكن الرحلة أمراً متعلِّقاً بالحجِّ فحسب؛ بل أصبحت ضرورة لازمة لطلب العلم⁽³⁾. واختلف كلُّ فرد عن الآخر في الفترة الزمنيَّة التي كان يقضيها في اغترابه العلميِّ عن وطنه، فهي تتباين بحسب قدرة كلِّ منهم على مواصلة الارتحال بين مراكز العلم المنتشرة في العالم الإسلاميِّ بمختلف أقطاره⁽⁴⁾، وقد ضرب الأندلسيون أروع الأمثلة في طول الغياب وتحملِّ العُربة عن بلادهم من أجل العلم، وكانوا يرحلون إلى المشرق بشكل جماعيٍّ بهدف التخفيف من عبء الرحلة ومشاقها، وكانت رحلاتهم تستغرق فترات طويلة من الزَّمن، فمثلاً أقام محمد بن قاسم القرطبي (ت. 327هـ/938م)⁽⁵⁾ في رحلته أربعة أعوام وأربعة أشهر⁽⁶⁾. كما كان لبعضهم أكثر من رحلة إلى المشرق، وهذا يدلُّ على مدى رغبة الأندلسيين بإثراء معرفتهم العلميَّة؛ فقام محمد بن سيَّار القرطبي (ت. 278هـ/891م)⁽⁷⁾ رحل مرتين في طلب العلم؛ الرحلة الأولى أقام فيها اثني عشر

(1) البشري، سعد، الحياة العلميَّة في عصر الخلافة في الأندلس (316-422 هـ/928-1030م)، ص94.

(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص745.

(3) الهروط، ص30؛ يوسف، ص71.

(4) البشري، ص96.

(5) محمد بن قاسم القرطبي: يكنى أبا عبد الله، سمع من أبيه ومن محمد بن وضَّاح، وسمع بالقيروان ومصر والعراق من جماعة من العلماء، وكان عالماً بالفقه، ومشاوراً في الأحكام، انظر: ابن عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج5، ص179.

(6) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج2، ص64.

(7) قاسم بن محمد بن سيَّار: يكنى أبا عبد الله، من موالى بني أمية، سمع عن أبيه ومن بقي بن مخلد وسمع من علماء بغداد والإسكندرية والقيروان، وكان عدد من أخذ عنهم يزيد على مائة وستين رجلاً، وكان عالماً بالفقه متقدماً في علم الوثائق، انظر: المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2، ص(62-63).

عاماً، والثانية سنة أعوام⁽¹⁾، وكذلك بقي بن مخلد (ت. 276هـ/889م)⁽²⁾ فقد أمضى في رحلته الأولى عشرة أعوام، وفي الأخرى خمسة وعشرين عاماً⁽³⁾.

أما الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم طلاب الأندلس فلا يمكن حصرهم، إذ كان هؤلاء الطلبة يقصدون كل من يتوفر لديه قسط من العلم في شتى بقاع العالم الإسلامي، حتى إن كتب التراجم لم تذكر أعدادهم لكثرتهم، فكانت بعض المصادر تشير بقولها: (وجماعة يكثر تعدادهم) بعد أن يعدّ عدداً كبيراً من الشيوخ، فمحمد بن وضّاح القرطبي (ت. 287هـ/900م)⁽⁴⁾ "سمع على جماعة كثيرة من البغداديين والمصريين والشاميين والقرويين، وعدد الرجال الذين سمع منهم في الأمصار مئة وخمسة وستون رجلاً"⁽⁵⁾. وبعد أن نهج الأندلسيون طريق الرحلات العلمية؛ فإنه من الطبيعي أن يكون لها نتائج مهمة وآثاراً كبيرة، فبعد تلقّيهم العلم على شيوخ المشرق وعلمائه؛ كانوا يشدون رحالهم إلى الأندلس ناقلين معهم العلوم الواسعة والمعارف الغزيرة، بالإضافة إلى حملهم الكثير من المؤلفات المشرفيّة النفيسة، وفي مقدّمة هؤلاء: الفقيه بقي بن مخلد الذي عاد إلى الأندلس بكتب عديدة في علوم مختلفة؛ كالفقه والتاريخ والتراجم، والتي كان لها تأثير عظيم في الحركة العلميّة الأندلسيّة، ففتحت تلك المصنّفات آفاقاً واسعة للبحث العلمي، فأقبل الأندلسيون على دراستها، والاستفادة من المناهج العلميّة في البحث والتأليف، والتي سبقهم المشاركة إليها⁽⁶⁾. ومن العلماء الآخرين: محمد بن وضّاح القرطبي؛ حيث حدّث بعد رحلته الثانية بعدد من الكتب التي سمعها بالمشرق، وقد حدّث بالأندلس مدّة طويلة وانتشر عنه علم جَمّ، وروى عنه من أهلها جماعة مشهورون أمثال؛ قاسم بن أصبغ (ت. 340هـ/951م)⁽⁷⁾، وقد عُرف عن ابن وضّاح في جلوسه للناس وإسماع الكتب، أنّه كان "صبوراً على نشر العلم، متعقفاً، نفع الله أهل الأندلس به"⁽⁸⁾.

- (1) الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، ص 301.
- (2) بقي بن مخلد: رحل إلى المشرق في طلب العلم، وسمع عدداً من الشيوخ المالكيّة والشافعيّة في مكّة والمدينة ومصر ودمشق وبغداد، ولم يتبع مذهباً معيّناً، وإنما كان يصدر آراءه في المسائل بحسب ما رأى، ولم يرض فقهاء الأندلس عن مذهبه، وأخذوا يكيدون له، ألف بقي بن مخلد تأليف كثيرة، منها كتابه: التفسير والمسند في الحديث، انظر: الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ص 252؛ الضبي، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ج 1، ص 301.
- (3) الخشني، ص 49.
- (4) محمد بن وضّاح: رحل إلى المشرق، وأتسم منهجه بالدقّة في التعامل مع الأحاديث، وكان شديد الورع والتعقّف، أخذ العلم عنه كثير من الناس، انظر: ابن الفرضي، ج 1، ص 144.
- (5) ابن الفرضي، ج 2، ص 26.
- (6) ابن الفرضي، ج 1، ص 145؛ الحميدي، ص (251-252).
- (7) قاسم بن أصبغ: ويعرف بالبياني، وهو من أهل قرطبة، ومن شيوخه في الأندلس؛ بقي بن مخلد ومحمد بن وضّاح. رحل إلى المشرق وأخذ عن أحمد بن يحيى بن يزيد (ت. 286هـ/899م) المعروف بثعلب، وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث، وكان طلاب العلم يرحلون إليه في الأندلس، وكان بصيراً بالحديث بالإضافة إلى النحو والشعر، وقد ضاعت الكتب التي ألفها وحفظ لنا المؤرخون أسماءها، مثل: كتاب الأنساب، وكتاب في السنن، انظر: الحميدي، ص (487-488).
- (8) الحميدي، ص 141.

ونتيجة للرحلات التي قام بها الأندلسيون إلى المشرق؛ تطوّرت العلاقات الثقافيّة بين الطّرفين وقويت، وبخاصّة في ميدان العلوم الدّينية؛ فقد استطاع الفقيه زياد اللّخمي (ت. 199هـ/814م) ومن بعده يحيى بن يحيى اللّيثي (ت. 234هـ/848م)⁽¹⁾ نشر المذهب المالكي في الأندلس⁽²⁾. كما أثرى العائدون إلى الأندلس طلبتهم بالعلم، سواء الموجود في الكتب، أو الذي جنوه عبر سنوات رحلاتهم، ولم ينحصر علمهم في مجال واحد، بل اهتموا بالعديد من العلوم، ومنها علم التّاريخ، والمؤلّفات التّاريخيّة المشرقيّة التي سجلت بها أحداث العالم الإسلامي، وتتلّمذوا على أيدي مؤرّخين كبار، ومن هؤلاء محمّد بن عبد الله بن الغازي بن قيس (ت. 296هـ/908م)، الذي رحل ولقي جماعة من رواة الأخبار والأشعار، وأدخل إلى الأندلس الكثير منها، وعنه أخذ أهلها⁽³⁾.

وعدّ حفظ الكتب المشرقيّة عند أهل الأندلس سبيلاً إلى الشّرف والرّعاية، فقد نقل المقرئ (ت. 1041هـ/1632م) عن بعضهم أنّ بخارج قرطبة أيام ازدهارها "ثلاثة آلاف قرية، وكان الواحد عندهم لا يجعل القالص⁽⁴⁾ على رأسه، إلا من حفظ الموطأ، وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث عن النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) وحفظ المدوّنة، وكان هؤلاء المقالصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصّلاة مع الخليفة ويسلمون عليه، ويطالعونه بأمر بلدهم"⁽⁵⁾، ولم يكن حفظ الأندلسيين لبعض الكتب المشرقيّة حفظاً عادياً، بل كان حفظاً متقناً كحفظ القرآن الكريم⁽⁶⁾.

وعُدّت السّفارات السّياسيّة هي الأخرى من سبل التبادل العلمي، والسّفارة هي الشّكل الرّسمي للرحلات، حيث يوكل بها الرّحالة من قبل الحكّام، وهي الرّسالة التي يكلف بأدائها من يرى الحاكم فيه الصّفات التي تؤهّله للقيام بالسّفارة، إذ كانت تقتزن في نفوسهم بفائدتها للدّولة الإسلاميّة وعلوّ شأنها، فالسّفير ممثّل لدولته وعنوان لرقبها، ولم تنقطع السّفارات بين الأندلس وسائر الأقطار الإسلاميّة والأوروبيّة، لأغراض ومقاصد متنوّعة، وكان يتم اختيار السّفراء من ذوي المستوى العالي من التّقافة والذكاء والقُدرة على التّعبير، وأسهمت السّفارات بشكل واسع في توسيع نطاق المعلومات التّاريخيّة والجغرافيّة⁽⁷⁾.

(1) يحيى بن يحيى اللّيثي: من قبيلة مضمودة البربريّة، ويكنّى أبا عبد الله، رحل إلى المشرق، وسمع عن مالك بن أنس، وإليه انتهت رئاسة الفقه المالكي في الأندلس، وتفقه على يديه عدد من الطلاب، وكان له مركز عظيم عند الأمراء ووصلت درجته أعلى من القضاة، انظر: الحميدي، ص(566 - 567).

(2) الحميدي، ص567؛ الضبي، ج1، ص372.

(3) ابن الفرضي، ج2، ص33.

(4) القالص: الفقيه المقلص، وهو الذي يضع على رأسه القالص، (وهو القالس)، ويقصد به عند أهل المشرق القلنسوة أي غطاء للرأس، أما أهل الأندلس فيسمونها القالص بالصاد، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة قلص، ج6، ص181؛ المقرئ، ج1، ص458.

(5) المقرئ، ج1، ص458.

(6) رستم، ص181.

(7) الهروط، ص(31-32).

وقد أدّى قُرب الموقع الجغرافي والوحدة الطَّبِيعِيَّة بين الأندلس وبلاد المغرب إلى تعزيز الصَّلَات بين العدوتين، لسهولة الاتِّصال بينهما، الأمر الذي أسهم في سهولة الانتقال والسكنى بين الأندلسيين والمغاربة، وبقاء العلماء سنين طويلة في كلا الموضعين⁽¹⁾. ومن أسباب التَّبادل العلمي والانتقال التَّقافي من الأندلس إلى المغرب؛ الأزمات السياسيَّة التي عاشتها الأندلس، وبخاصة خلال وبعيد موقعة الرِّبض عام 202هـ/818م، حيث دفعت هذه الواقعة العلماء والفقهاء للهجرة بحثاً عن الأمان الذي يتطلَّبه النَّشاط العلمي، فهاجر عدد كبير منهم إلى مدينة فاس، فرحَّب بهم الأدارسة، وقاموا ببناء مدينة ملاصقة لاسْتيعابهم، فسُمِّيت باسمهم "مدينة الأندلسيين"⁽²⁾.

وكانت خطَّة مسير علماء الأندلس إلى بلاد المشرق تقتضي المرور بجميع المراكز العلميَّة التي تقع في طريقهم، فبعد انطلاقهم من الأندلس كانوا يتوجَّهون إلى المغرب حيث القيروان؛ التي كانت من مراكز العلم المهمَّة آنذاك، ثم منها إلى مصر؛ حيث مدينة الإسكندرية التي كانت بدورها تشكِّل مركزاً علمياً كبيراً، وإلى جانبها مدينة الفسطاط، والتي لم تكن أقلَّ شأناً من غيرها من مراكز العلم الإسلاميَّة، ومن مصر ينقسم العلماء أفواجا ليكُونوا في اتِّجاهين: اتِّجاه إلى الحجاز لمن يطلب العلوم الدينيَّة، وآخر إلى العراق لمن يرغب في دراسة العلوم الأخرى، والتي سبق لأهل العراق الاشتغال بها⁽³⁾. ولعلَّ كثرة توافد علماء الأندلس إلى المشرق كانت لافْتة لنظر بعض المؤرِّخين؛ ومنهم المقرئ الذي خصَّص لهم جزءاً من كتابه "نفع الطَّيب"، فذكر في بعض أبوابه من رحل من الأندلسيين إلى المشرق، كما ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق⁽⁴⁾.

الصَّلَات التَّقافيَّة بين الأندلس وبلاد المغرب

بعد أن استكمل العرب فتح بلاد المغرب وانتظمت تحت الحكم الإسلامي، أصبحت بمثابة الحاضنة للتَّقافة العربيَّة والإسلاميَّة في الغرب الإسلامي، فوفد إليها التَّابعون والفقهاء والعلماء، وتتلذذ على أيديهم كثير من المغاربة، وعلا نجم القيروان، وغدت قبلة لطلاب المعرفة من كل فجٍّ عميق، وبفضل القيروان ونشاطها التَّقافي قامت حركة إسلاميَّة مغربيَّة ساهمت بنشر الإسلام بين قبائل المغرب⁽⁵⁾. ومن ناحية أخرى؛ أدَّى بُعد بلاد المغرب عن حاضرة الخلافة الأموية ثمَّ حاضرة الخلافة العبَّاسيَّة في المشرق، بالإضافة إلى طبيعتها القبليَّة ولسانها البربري؛ إلى أن تصبح ملاذاً للفرق الخارجة على الدَّولة كالخوارج والصفريَّة والإباضيَّة والشَّيعيَّة⁽⁶⁾.

(1) العصيمي، إيمان، العلاقات العلميَّة بين الأندلس ومدينة فاس، ص165.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج2، ص77.

(3) ذنون طه، ص192.

(4) الدَّقَّاق، عمر، ملامح الشعر الأندلسي، ص31؛ العناني، محمَّد، تاريخ الأدب الأندلسي، ص240.

(5) حسين، حمدي، تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، ص369؛ الفيومي، ص83.

(6) الفيومي، ص83.

ونالت بلاد المغرب شهرة واسعة عندما ظهر فيها سحنون بن سعيد(ت. 240هـ/854م)⁽¹⁾، صاحب المدونة⁽²⁾ الشهيرة، وأخذ الأندلسيون يقصدونه للسمع عليه، وأدخلوا مدونته لبلادهم على يد عثمان بن أيوب(ت. 646هـ/860م)⁽³⁾، الذي رحل إلى القيروان وسمع منه، وعُدَّ "أول من أدخل المدونة إلى الأندلس"⁽⁴⁾، وأظهر سحنون إعجابَهُ بتمسُّك الأندلسيين بالسُّنة، فخاطبهم بقوله: "يا أهل الأندلس، أنا أحبُّكم لأنكم قوم سنَّة وخير"⁽⁵⁾، فأقبلوا على مدونته بشغف كبير حتى أنَّ مدينة البيرة⁽⁶⁾ كان بها سبعة من العلماء في وقت واحد ممَّن سمع على سحنون⁽⁷⁾. وكان إبراهيم بن عجنس الزَّيَّادي(ت. 275هـ/888م) قد اختصر المدونة بعد أن سمعها من مؤلفها⁽⁸⁾، كما سمع إبراهيم بن النعمان(ت. 283هـ/896م) من سحنون، وسكن القيروان وبقي هناك حتى توفِّي بمدينة سوسة⁽⁹⁾ من بلاد إفريقية⁽¹⁰⁾.

وبالتزامن مع الدور الذي لعبته القيروان، عُدَّ تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد في تاريخ البلاد خلال عصر الأدارسة حكَّام المغرب الأقصى، وممَّا ساعد في نجاح الأدارسة ودوام حكمهم؛ اشتراك العرب والبربر معهم جنباً إلى جنب، فاستطاعوا بفضل هذه الوحدة محاربة العقائد الشاذة، ممَّا مكن عاصمتهم من لعب دور علمي وثقافي كبير، فأصبحت المنارة الثانية بعد القيروان، وبخاصَّة بعد إحلال العربية محلَّ البربرية. واعتُبرت مدرسة فاس أكثر مدارس المغرب الأقصى تفوقاً، وقصدها النَّاس من كلِّ حذب و صوب، فأصبحت دار فقه وعلم وحديث، وصار فقهاؤها يقتدي بهم جميع فقهاء المغرب⁽¹¹⁾.

- (1) سحنون بن سعيد: أبو سعيد، عبد السلام سحنون حبيب التَّوخي، من أشهر فقهاء المالكية بالمغرب، ولد بمدينة القيروان سنة (160هـ/776م) وتلمذ لأكبر علمائها، رحل إلى المشرق طالباً للعلم، فزار مصر والشَّام والحجاز، وعاد إلى القيروان، وعمل على نشر المذهب المالكي، ومن أشهر مؤلفاته المدونة، انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج17، ص248.
- (2) المدونة: كتاب في فقه المالكية، بدأ جمعه أسد بن الفرات، بعد أن سمع بمصر عن الفقيه المالكي عبد الرَّحمن بن القاسم، فسمي كتابه الأَسديَّة وعندما أضاف عليه سحنون ما أضاف سميَّ بالمدونة أي مدونة سحنون، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص(181-182).
- (3) عثمان بن أيوب: وهو من أهل قرطبة، ويزعم ولده أنه من الفرس، روى عن الغازي بن قيس ورحل إلى بلاد المشرق، وسمع عن عدد من شيوخها، انظر: ابن الفرضي، ج1، ص393.
- (4) ابن عياض، ج4، ص243.
- (5) نفسه، ص7.
- (6) البيرة: مدينة تقع جنوبي الأندلس، بالقرب من غرناطة، على نهر شنيل، وتتصل بأراضي كورة قبرة، بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج1، ص244.
- (7) ابن الفرضي، ج1، ص(40،41) (65،67) (227،255).
- (8) نفسه، ج1، ص42.
- (9) سوسة: مدينة تقع على ساحل البحر المتوسط، وقد أحاط بها البحر من الشَّمال والشَّرق والجنوب، بينها وبين القيروان سنَّة وثلاثون ميلاً، انظر: الحموي، ج3، ص282.
- (10) ابن الفرضي، ج1، ص44.
- (11) الفَيومي، ص(84-85).

ومن أهم المراكز العلمية في فاس؛ جامع القرويين الذي أصبح فيما بعد جامعة علمية تستقطب جميع علماء المسلمين، ولم تقتصر على علماء الأندلس فقط، بل قصدوا العلماء من كل البلاد الإسلامية، هذا بالإضافة إلى المدارس التي أسسها الأندلسيون في فاس وأصبحت معلماً من معالم النهضة العلمية⁽¹⁾، وذلك بعد أن اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة، فذُعيت بغداد الغرب، ومما أسهم في إثراء معالم نهضتها الثقافية؛ تأثر الحياة العلمية فيها بأعلام الأندلس الذين استقروا فيها، وعملوا بالتدريس والقضاء والإمامة والخطابة، مما أدى إلى استعادة أبناء المغرب من علوم الأندلسيين وثقافتهم وآدابهم، حتى إن بعض طلبة العلم المغاربة اقتصرُوا على الرحلة في طلب العلم إلى الأندلس وأخذوا عن العلماء الأندلسيين بفاس⁽²⁾.

كما اشتهرت الدولة الرُستميّة في بلاد المغرب الأوسط بكونها الجسر الذي ضمن استمرار التدفّق الحضاري بين المشرق والأندلس، وعن طريق الرُستميين نجح أمراء بني أمية في الأندلس في الحصول على ما يحتاجون إليه من كنوز المشرق ومؤلّفاته، وبذلك فإنّ حكام تاهرت⁽³⁾ قد قاموا بدور الوسيط الثقافي بين بلاد المشرق والأندلس⁽⁴⁾. ونتيجة لهذا الدور الثقافي الذي اضطلع به الرُستميون؛ ظهرت مؤثرات إباضية في بلاد الأندلس، إذ إنّه من الطبيعي أن تترك هذه العلاقات القويّة آثارها في الشعب الأندلسي، إلا أنّها لم تكن بالقوّة ما يُظهرها بشكل واضح نتيجة لسيطرة العقيدة السنيّة المطلقة على الأندلسيين، وقد ظهرت هذه التّأثيرات في مناطق الاحتكاك التجاري بين الرُستميين والأمويين بمدينة المرية⁽⁵⁾ التي كان أهلها على مذهب الخوارج⁽⁶⁾، وكان أحد المعلمين في قرطبة واسمه جابر بن غيث (ت. 299هـ/911م)⁽⁷⁾ كثير التّشدد في مذهب الخوارج الإباضية⁽⁸⁾.

وقد رحل إلى الأندلس العديد من علماء الدولة الرُستميّة يأخذون العلم من علمائها ويروون عنهم، ومن هؤلاء قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي (ت. 322هـ/933م) الذي يقول عنه الحميدي (ت. 488هـ/1095م): إنّه دخل الأندلس وكان من جلساء بكر بن حماد التاهرتي (ت.

(1) العصيمي، ص275.

(2) نفسه، ص199، 275.

(3) تاهرت: مدينة من مدن المغرب الأوسط على الطريق من تلمسان وعاصمة الأدارسة، وكانت بالأصل مدينتين إحداهن قديمة والأخرى حديثة، وتقع على سفح جبل يسمى قزول، انظر: الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص126.

(4) سالم، السبّد، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص483؛ بوباية، عبد القادر، علاقة الرُستميين بالإمارة الأموية في الأندلس، ص389.

(5) المرية: مدينة تقع جنوب شرق الأندلس على البحر المتوسط، أمر ببنائها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 344هـ/955م، وكانت تشتهر بمينائها البحري الهام وبصناعتها الوفيرة، انظر: الحميري، ص(537-538).

(6) بوباية، ص389.

(7) جابر بن غيث: أبو مالك، كان عالماً باللغة والشعر والآداب، أدب أولاد هاشم بن عبد العزيز (ت. 273هـ/886م)، انظر: السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، ص483.

(8) ابن الفرضي، ج1، ص156.

296هـ/908م⁽¹⁾ ومَمَّنْ أَخَذَ عَنْهُ أَيْضاً أَبُو الْفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ قَاسِمٍ (ت. 395هـ/1004م) الَّذِي رَوَى عَنْهُ أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ (ت. 463هـ/1070م)⁽²⁾.

وَمَمَّنْ كَانَ لَهُمُ الْفَضْلُ فِي إِثْرَاءِ الْمَعَارِفِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ؛ قَاسِمُ بْنُ أَصْبَغٍ الَّذِي تَتَلَمَّذَ عَلَى بَكْرِ بْنِ حَمَّادِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الزَّنَاتِيِّ، الَّذِي نَشَأَ بِتَاهَرْتِ وَأَخَذَ عَنْ عِلْمَانِهَا، ثُمَّ التَّحَقَّ بِالْقَيْرَوَانِ سَنَةَ 217هـ/832م، فَأَخَذَ بِهَا عَنِ الْإِمَامِ سَحْنُونِ وَعَوْنِ بْنِ يَوْسُفٍ (ت. 239هـ/853م)⁽³⁾، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَطَافَ بِحَوَاضِرِهِ الْعِلْمِيَّةِ، وَتَزَوَّدَ مِنْهَا بِعِلْمِ الدِّينِ وَالْأَدَبِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ وَدَرَسَ الْأَدَبَ وَالْحَدِيثَ، وَمِنْذُ سَنَةِ 274هـ/887م ارْتَحَلَ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ لِأَخْذِ عَنْهُ وَالتَّخَرُّجِ عَلَيْهِ⁽⁴⁾. وَيَتَجَلَّى مِمَّا سَبَقَ مَدَى الْإِرْتِبَاطِ الْوَثِيقِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ الدَّوْلَةِ الرُّسْتَمِيَّةِ فِي تَاهَرْتِ وَالْإِمَارَةِ الْأُمَوِيَّةِ فِي قَرْطَبَةِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْإِخْتِلَافِ الْمَذْهَبِيِّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَقِفْ حَائِلًا دُونَ تَشَابُكِ الْعِلَاقَاتِ التَّقَافِيَّةِ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ.

الصَّلَاتُ التَّقَافِيَّةُ بَيْنَ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ

مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الْأَنْدَلُسَ كَانَتْ قَدْ فَتَحَتْ فِي خِلاَفَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ (86-96هـ/705-715م)، وَظَلَّتْ وَلايَةً تَابِعَةً لِدِمَشْقَ إِلَى أَنْ اسْتَقَلَّ بِهَا الْأَمِيرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّخَلِ عام 138هـ/755م، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ زَرَعَ بَذُورَ الْحَضَارَةِ الشَّامِيَّةِ فِيهَا، نَظراً لِحَرْصِهِ مِنْذُ قِيَامِ دَوْلَتِهِ عَلَى تَجْدِيدِ حَضَارَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ، وَعَلَى نَقْلِ النُّظْمِ الْإِدَارِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْمَشْرِقِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْعَهْدِ الْأُمَوِيِّ، وَتَطْبِيقِهَا فِي الْأَنْدَلُسِ، وَقَدْ تَمَّ لَهُ ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ يَثِيرِ الْإِعْجَابِ⁽⁵⁾. وَعَلَى صَعِيدِ الْمُؤَثَّرَاتِ الشَّامِيَّةِ وَالتَّشَابُهِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ؛ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَوْقِعَ مَدِينَةِ قَرْطَبَةِ يَشْبَهُ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ مَوْقِعَ دِمَشْقَ، زِدَ عَلَى هَذَا التَّشَابُهِ بَيْنَ الْبَلَدَيْنِ فِي بِيُوتِهِمَا وَأَسْلُوبِ الْحَيَاةِ فِيهِمَا، وَمِنْ هُنَا قَالَ الْجُغْرَافِيُونَ الْعَرَبُ: "الْأَنْدَلُسُ شَامِيَّةٌ فِي هَوَائِهَا وَشَامِيَّةٌ فِي حَيَاتِهَا"⁽⁶⁾.

وَتَأَثَّرَتِ الْحَيَاةُ الدِّينِيَّةُ فِي الْأَنْدَلُسِ بِنَظِيرَتِهَا الشَّامِيَّةِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ رَحِيلِ الْكَثِيرِ مِنَ الْفُقَهَاءِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ إِلَى الشَّامِ، وَمِنْهُمْ؛ صَعِصَعَةُ بْنُ سَلَامِ الشَّامِيِّ (ت. 192هـ/808م)⁽⁷⁾ الَّذِي نَقَلَ الْمَذْهَبَ

(1) بَكْرِ بْنُ حَمَّادِ التَّاهَرْتِيِّ: وُلِدَ بِمَدِينَةِ تَاهَرْتِ حِوَالِي سَنَةِ 200هـ/815م، وَتَلَقَّى دَرُوسَهُ عَلَى مَشَاهِيرِ عِلْمَانِهَا، رَجُلٌ إِلَى الْقَيْرَوَانِ وَيَعْدَادُ وَتَلَقَّى الْعِلْمَ عَلَى يَدِ عِدَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالشُّبُوحِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى تَاهَرْتِ وَتَوَقَّفَ بِهَا، انْظُرْ: شَاوِشُ، مُحَمَّدٌ، الدَّرُوقَادُ مِنْ شَعْرِ بَكْرِ بْنِ حَمَّادِ التَّاهَرْتِيِّ، ص (50-43).

(2) الْحَمِيدِيُّ، ص (201-202).

(3) عَوْنُ بْنُ يَوْسُفٍ: كَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَثِقَةً مَأْمُونًا، قَدِمَ الْمَدِينَةَ سَنَةَ 180هـ/796م فَادْرَكَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْ مَعْلَمِي ابْنِ وَهْبٍ، مِنْهُمْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ (ت. 182هـ/798م)، وَكَانَ يَبِيعُ الْكُتَانَ فِي حَانُوتٍ لَهُ، انْظُرْ: أَبُو الْعَرَبِ، طَبَقَاتُ عُلَمَاءِ أَفْرِيْقِيَّةٍ، ص 105.

(4) الْحَمِيدِيُّ، ص 487.

(5) حَلَّاقٌ، حَسَانٌ، الْعِلَاقَاتُ الْحَضَارِيَّةُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فِي الْعَصُورِ الْوَسْطَى، ص 29.

(6) نَفْسُهُ، ص (33-34).

(7) صَعِصَعَةُ بْنُ سَلَامٍ: أَصْلُهُ مِنْ دِمَشْقَ، مِنْ أَصْحَابِ الْأَوْزَاعِيِّ، وَأَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَ مَذْهَبَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْحَدِيثِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَبَقِيَ فِيهَا حَتَّى زَمَنِ الْأَمِيرِ هِشَامِ الرُّضَا، انْظُرْ: الْحَمِيدِيُّ، ص 350.

الأوزاعي إلى الأندلس⁽¹⁾، ومحمّد بن وضّاح الذي رحل إلى المشرق وطاف الكثير من أقطاره في طلب العلم، ومن الذين قصدهم عبد الرّحمن بن إبراهيم (ت. 245هـ/859م)⁽²⁾ قاضي دمشق المعروف بدحيم، كما رحل إلى المغرب والمدينة المنورة وقصد الكثير من العلماء، ولمّا عاد إلى الأندلس حدّث فيها وأصبح له تلاميذ كثير⁽³⁾.

وكان الأدب الأندلسي بمثابة صدى في نمطه للأدب الشّامي، فالشّعر الأندلسي مثلاً كان شعراً كلاسيكياً يحاكي شعر الفرزدق (ت. 114هـ/732م) وجريير (ت. 110هـ/728م)⁽⁴⁾، وكانت نصوص الشّعر في الأندلس كما في الشّام، في معظمها مدح وهجاء، واصطبغ المديح لدى الأمويين في الأندلس بالطابع البدوي في كثير من الأحيان⁽⁵⁾. ومن ناحية أخرى، بدأت اللغة العربية والشّعر العربيّ يؤثّران في البيئة المسيحيّة؛ وانكبت شرائح عديدة في المجتمع المسيحي والقساوسة على تعلّم اللغة العربيّة، وكانت كلّما مرّت السّنون ضاعت اللغة اللاتينيّة بشكل أكثر، فترجمت فيما بعد بعض بيانات البابا وقرارات المؤتمرات والمجامع المسيحيّة إلى العربية، حتى يتمكّن المسيحيون في الأندلس من فهمها، لأن كثيراً منهم لم يعودوا يفهمون اللاتينيّة⁽⁶⁾.

وبعد وفاة عبد الرّحمن الداخل بدأت بعض المؤثّرات الشّاميّة والحجازيّة تتقلّص في الأندلس، لا سيّما وأنّ الأجيال الجديدة لم يسبق لها أن رأت بلاد الشّام أو ارتبطت بها كما ارتبطت بها الجيل الأوّل، وعلى الرّغم ممّا ذكر؛ فقد ظهر أثر المدينة المنورة واضحاً، ومنها دخول مذهب الإمام مالك (ت. 179هـ/795م)⁽⁷⁾ إلى الأندلس، وانتشاره في عهد الأمير هشام الرضا، وكان أوّل من أدخل هذا المذهب زياد بن عبد الرّحمن اللخمي⁽⁸⁾، وممّا ساعد على انتشاره؛ الخلافات السياسيّة بين العبّاسيين أتباع المذهب الحنفي وبين الأمويين المالكيين—بعد أن تخلّوا عن مذهب الإمام الأوزاعي—لأن الإمام مالكا كان معادياً للحكم العبّاسي، وقد ساعد الفقهاء الأندلسيون على نقل مذهبهم إلى الأندلس بعد أن قاموا بزيارات عديدة إلى المدينة وإلى بلدان المشرق الإسلامي، ولعل وجود عناصر كثيرة من الحجازيين من الذين وصلوا الأندلس بقيادة موسى بن نصير (ت. 97هـ/716م)، ثم وجود تشابه في طبيعة الحجازيين والأندلسيين وبساطة حياتهم، كانت من جملة الأسباب التي أدّت إلى انتشار واعتناق الأندلسيين للمذهب المالكي⁽⁹⁾.

- (1) ابن الفرضي، ج1، ص278؛ الحميدي، ص350.
- (2) عبد الرّحمن بن إبراهيم: أبو سعيد، تولى منصب قضاء طبريّة بفلسطين، وحدّث عن عدد من شيوخ عصره منهم سفيان بن عيينة (ت. 198هـ/814م)، عُرف بدحيم اليثيم، وقدم إلى بغداد وحدّث فيها وروى عنه كثيرون، وكان ثقة، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج11، ص(516-515).
- (3) الحميدي، ص140.
- (4) أبو الفضل، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، ص275.
- (5) حلاق، ص(29-30)؛ ضيف، أحمد، بلاغة العرب في الأندلس، ص48.
- (6) حلاق، ص(30-31).
- (7) مالك بن أنس بن مالك: ولد سنة 92هـ/710م، كان إماماً في الحديث، ومن أصحاب المذاهب الفقهيّة الأربعة، ومن أهم مؤلفاته الموطأ، انظر: الذهبي، تاريخ، ج11، ص(316-317)، (321-322).
- (8) الضبي، ج1، ص372.
- (9) حلاق، ص54.

ويذكر ابن القوطيَّة (ت. 367هـ/977م)، أنَّه في أيَّام عبد الرَّحمن الدَّاخل، أدخل الغازي بن قيس (ت. 199هـ/814م) ⁽¹⁾ موطاً مالك إلى الأندلس، وكانت رحلته من المشرق إلى الأندلس بعد دخول عبد الرَّحمن الدَّاخل إليها، وأضاف ابن القوطيَّة أنَّ زياد بن عبد الرَّحمن اللخمي رحل إلى المدينة المنوَّرة واجتمع فيها بالإمام مالك بن أنس، واجتمع بالأخير أيضاً قاضي الأندلس -في عهد الأمير هشام- محمَّد بن بشير (ت. 198هـ/813م) ⁽²⁾ الذي رحل إلى المشرق وحجَّ بيت الله الحرام، "وسمع من مالك سماعاً يسيراً" ⁽³⁾، وعلى أثر ذلك حلَّ المذهب المالكي محلَّ مذهب الإمام الأوزاعي باستثناء المسائل التي تمسَّك بها الأندلسيون كإجازة غرس الأشجار في صحون المساجد ⁽⁴⁾.

كما ظهر في الأندلس مؤثَّرات مشرقية دينية أخرى، ففي طليطلة ظهر مذهب الخوارج، وكتب عبَّاس بن ناصح (ت. 237هـ/852م) ⁽⁵⁾ إلى الأمير الحكم الرِّبضي (180-206هـ/796-822م) شعراً ينكر فيه مذهب الخوارج، وعندما علم بهم الأمير أجهز عليهم، ثم عمد إلى تقريب الفقهاء المالكيين منه، وفي مقدِّمتهم طالوت بن عبد الجبَّار ⁽⁶⁾ "وهو أحد من رَووا عن مالك ونظرائه من أهل العلم" ⁽⁷⁾. ومن الملاحظ أنَّ الأثر الحجازي كان واضحاً في الأندلس بشكل كبير، وذلك نظراً لكثرة الفقهاء والعلماء والتلاميذ الأندلسيين الذين وفدوا إلى مكَّة والمدينة، وانتقال الفقهاء الحجازيين إلى الأندلس أيضاً ⁽⁸⁾.

ولم تقتصر الصَّلَاتُ النَّقَافِيَّةُ الحجازية الأندلسية على النَّواحي الدِّينية، بل تعدَّتْها إلى النَّواحي الفنيَّة؛ ففي القرن الثَّاني الهجري/الثَّامن الميلادي ظهرت المدارس الموسيقية الأولى في الإسلام، ثم انتقلت مؤثَّرات خصائصها إلى الأندلس بوساطة المغنِّين والمغنِّيات والجواري الذين

- (1) الغازي بن قيس: أبو محمَّد الأندلسي المقرئ، له رحلة إلى المشرق، وأخذ العلم عن الأوزاعي، والإمام مالك، وحفظ الموطأ، وكان أماماً عابداً، برع في رسم المصاحف، انظر: الذهبي، سير، ج 9، ص 322.
- (2) محمد بن بشير المعافري: رحل إلى المشرق ولقي مالكاً، ولما عاد إلى الأندلس سلَّمه الأمير الحكم الرِّبضي منصب القضاء، انظر: النباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ص (47-48).
- (3) ابن القوطيَّة، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 64، 62، 56.
- (4) النباهي، ص 51.
- (5) عبَّاس بن ناصح: برع في علوم الشَّعر والأدب واللغة والهندسة والفلك والفلسفة، وكانت له منزلة خاصة عند الحكم الرِّبضي، جلب الكثير من الكتب القديمة من المشرق، وعيَّن على قضاء الجزيرة بلده ومسقط رأسه، انظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج 1، ص 45؛ انظر أيضاً: الشَّعراوي، أحمد، الأمويون: أمراء الأندلس الأول، ص 219.
- (6) طالوت بن عبد الجبَّار: هو طالوت بن عبد الجبَّار بن محمَّد بن أيُّوب بن سليمان بن صالح بن السَّمح المعافري، من أهل قرطبة، وله رحلة في المشرق التقى فيها الإمام مالك بن أنس، وكان على درجة من العلم والدين، وعلى علم كبير بالفقه، انظر: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلوة، ج 1، ص 276.
- (7) ابن القوطيَّة، ص 67.
- (8) حلاق، ص 56.

نقلوا أيضاً العادات والتقاليد الحجازية⁽¹⁾، وقد وفد على الأندلس عددٌ من مغنّيات المدينة⁽²⁾، وكان عددٌ من الفتيات القادمات من الحجاز متخصصاً بقراءة القرآن الكريم، ونشد المدائح والموشحات الدنيّة والشعر المثزن الملتزم⁽³⁾.

الصلات الثقافية بين الأندلس ومصر والعراق

انتقلت المؤثرات المصرية إلى الأندلس بوساطة الجنود والرّحالة والفقهاء والمغنّين والمهنيّين، ومن المعروف أنّ القائد كلثوم بن عياض القشيري(ت. 123هـ/740م)⁽⁴⁾ أرسل من مصر في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك(105-125هـ/724-743م) إلى الأندلس وأفريقية ثلاثة آلاف مقاتل مصري لمقاتلة البربر، ثم أتبعهم بثلاثين ألفاً من الشّاميين، فشكّل ذلك بمثابة البداية لانتقال المؤثرات الاجتماعية والثقافية والدنيّة من مصر إلى الأندلس⁽⁵⁾.

وفي مصر ساد المذهب المالكي بعد أن انتقل إليها من المدينة، وعندما رحل الفقهاء الأندلسيون إلى مصر حملوا عند عودتهم إلى الأندلس تعاليم المذهب المالكي وعملوا على نشره فيها، وبالرغم من أنّ الإمام الليث بن سعد(ت. 175هـ/791م)⁽⁶⁾ كان مصرياً، وكان يعيش في مصر؛ غير أنّ المصريين فضّلوا مالكاً عليه؛ ونقل الكثير من الأندلسيين الذين درسوا في مصر على الإمام الليث بن سعد مذهبه إلى الأندلس، وظلّت بعض تعاليمه وأحكامه معمولاً بها إلى جانب المذهب المالكي حتّى أواخر الحكم الإسلامي في الأندلس⁽⁷⁾. ولم يكن لهذه المؤثرات المذهبية المصرية أن تنتقل إلى الأندلس إلا بوساطة التبادل الحضاري والعلمي والرّحلات بين البلدين، وبوساطة بعض الفقهاء والتلاميذ الذين وفدوا من الأندلس والمغرب، والذين تلقوا علومهم على فقهاء مصريين أمثال: عبد الرحمن بن القاسم(ت. 191هـ/807م)⁽⁸⁾، وعبد الله بن

- (1) عاشور، سعيد؛ العبادي، أحمد؛ عبد الحميد، سعد، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميّة العربيّة، ص (113-114).
- (2) المقرئ، ج3، ص142.
- (3) نفسه، ص140.
- (4) كلثوم بن عياض القشيري: وُلّي إفريقية سنة 122هـ/740م زمن هشام بن عبد الملك لقتال البربر، وسبّر معه جيشاً ضخماً في نحو ثلاثين ألف مقاتل، ودارت بينه وبين البربر حروب عظيمة، إلا أنه قتل في إحداهما، انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص321؛ ابن عذاري، ج2، ص20،(22-23).
- (5) حلاق، ص59.
- (6) الليث بن سعد: شيخ إقليم مصر، مولى أصبهاني الأصل، حجّ ولقي عدداً من الشيوخ الذين تلقى عنهم علمه، وكان كبير الديار المصريّة، انظر: الذهبي، تاريخ، ج11، ص(302-303).
- (7) حلاق، ص(62-63).
- (8) عبد الرحمن بن القاسم: أبو عبد الله الفقيه، أخذ علمه عن الإمام مالك وعن عددٍ من كبار شيوخ عصره، وكان شديد الورع والتقوى، انظر: الذهبي، تاريخ، ج13، ص(275،277).

وهب (ت. 197هـ/813م)⁽¹⁾، وأشهب بن عبد العزيز (ت. 204هـ/819م)⁽²⁾ ونصر بن مرزوق المصري⁽³⁾ الذي أخذ عنه محمّد بن فطيس بن واصل الغافقي الألبيري (ت. 319هـ/931م)⁽⁴⁾.

وذكر الحميدي الكثير من الفقهاء الأندلسيين الذين تتلمذوا في مصر، وكذلك الفقهاء المصريين الذين رحلوا إلى الأندلس، ومن الفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى مصر محمّد بن هارون بن عبد الرحمن بن عبد الفضل بن عميرة العتقي (ت. 306هـ/918م)، حيث سمع فيها من الفقيه أبي يزيد يوسف بن يزيد بن كامل بن حكيم القراطيسي (ت. 287هـ/900م)⁽⁵⁾ ثم عاد إلى الأندلس، وحدث فيها وتوفّي بها⁽⁶⁾. ورحل إلى مصر أيضاً الفقيه الأندلسي أبو اسحاق إبراهيم بن موسى بن جميل (ت. 300هـ/912م)، وهو مولى بني أمية، وسمع فيها عن محمّد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت. 268هـ/881م)⁽⁷⁾، كما رحل إلى العراق وسمع من فقهاءها، ثم عاد وحدث في الأندلس⁽⁸⁾. كما انتقل إلى الأندلس -أيضاً- مذهب الإمام محمّد بن إدريس الشافعي (ت. 204هـ/820م)⁽⁹⁾ بوساطة الفقيه بقي بن مخلد في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (206-238هـ/821-852م)، ولكن لم يقدر له الانتشار كثيراً بسبب معارضة المالكية له⁽¹⁰⁾.

واهتم كلٌّ من المصريين والأندلسيين بالتأريخ، فقد كان المؤرّخون المصريون على علم بأخبار الأندلس، ومنهم المؤرّخ عبد الله لهيعة (ت. 154هـ/770م)⁽¹¹⁾ الذي كان يلاحق القادمين من الأندلس، فيسألهم ليدون مشاهداتهم ومعارفهم، غير أنّ كتاباته ضاعت وورد ذكرها

- (1) عبد الله بن وهب: درس الحديث على أبيه عدد من شيوخ عصره، وكان له العديد من المؤلفات منها؛ كتاب الجامع والبيعة، انظر: الذهبي، سير، ج9، ص(225،223).
- (2) أشهب بن عبد العزيز: أبو عمرو، تفقه على يد الإمام مالك، وكان كثير العلم، انظر: ابن خلكان، ج1، ص(238-239).
- (3) نصر بن مرزوق المصري: أبو الفتح، روى عن وهب بن راشد (ت. 211هـ/826م) وآخرين، وقالوا عنه: إنه صدوق، انظر: الرازي، الجرح والتعديل، ج8، ص477.
- (4) الحميدي، ص126.
- (5) يوسف بن يزيد القراطيسي: أبو يزيد، مولى أمير مصر عبد العزيز بن مروان، سمع من أسد بن موسى السنة وعدد كبير من شيوخ عصره، وحدث عنه عبد الله بن جعفر، وعلي بن محمّد الواعظ، وكان من أوثق الناس، انظر: الذهبي، سير، ج13، ص455.
- (6) الحميدي، ص143.
- (7) محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمع عن عدد من شيوخ عصره، وكان عالم الديار المصرية في عصره، وهو من أعرّف الناس بأقاويل الصحابة والتابعين، وله العديد من المصنّفات منها؛ أحكام القرآن، انظر: الذهبي، سير، ج12، ص(497-500).
- (8) الحميدي، ص224.
- (9) الشافعي: أبو عبد الله، محمّد بن إدريس بن العباس الشافعي، اجتمعت فيه الكثير من الصفات الحسنة من علم وأدب وكان عالماً بالقرآن وكلام الصحابة وبكلام العرب واللغة والشعر، وقيل: إنه اجتمع بمالك بن أنس وحفظ موطأه، وله مذهب في الفقه، انظر: ابن خلكان، ج4، ص(164-163).
- (10) الحميدي، ص252.
- (11) عبد الله بن لهيعة: قاضي مصر، محدّث، كثير الترحال لطلب العلم، احترقت كتبه قبل موته بأربع سنين، انظر: ابن حبان، المجروحين من محدّثين والضّعفاء والمتروكين، ج1، ص504.

في مصادر أخرى⁽¹⁾، أما أقدم كتاب وصل إلينا عن تاريخ المغرب والأندلس فهو الذي كتبه المؤرخ المصري عبد الرحمن بن عبد الحكم (ت. 257هـ/871م)، وعنوانه "فتوح مصر والأندلس"، وقد انتشر في الأندلس وأخذ عنه الكثير من المؤرخين أمثال: ابن الفرزي (ت. 403هـ/1012م) والحميدي، وكان ابن عبد الحكم عالماً بالتاريخ فقيهاً صديقاً للإمام الشافعي، وقد تضمن كتابه معلومات مهمة عن تاريخ مصر والأقباط، ومعلومات قيمة عن تاريخ الأندلس وإفريقية والنوبة⁽²⁾ وبلاد المغرب⁽³⁾.

والأمر اللافت أن الأندلسيين تأثروا بمنهج عبد الرحمن بن عبد الحكم في التاريخ لا سيما تاريخ بلادهم، فأقدم كتاب وضعه الأندلسيون عن تاريخ بلادهم هو تاريخ عبد الملك بن حبيب السلمى (ت. 238هـ/852م)⁽⁴⁾، الذي عاش في القرن الثالث الهجري ودرس فترة طويلة في مصر، ونقل في كتابه كل ما سمعه من روايات عن شيوخه المصريين، ثم عاد إلى قرطبة حيث كان يعقد حلقات دروسه في المسجد الجامع⁽⁵⁾. ومن ناحية أخرى؛ استقدم أمراء بني أمية في الأندلس المغنبيين والمغنيبات من مصر، ومن هؤلاء عبد الواحد الإسكندراني (ت. 309هـ/921م) الذي كان مغنياً وأديباً، فقربه الأمير عبد الرحمن الأوسط وولاه الوزارة وأمور المدينة⁽⁶⁾.

وأما المؤثرات العراقية في الأندلس فبدأت تظهر بوضوح منذ أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (136-158هـ/754-775م) الذي أسس مدينة بغداد (149-145هـ/762-766م) وجعلها عاصمة لدولته ومقرّاً لخلافته، وأصبحت بغداد مدينة حضارية عالمية امتزجت فيها مختلف الثقافات وسكنتها عناصر من مختلف الأجناس والأقوام كالفرس والهنود والروم والصينيين، وقد بدأت هذه العناصر بالمساهمة في إيجاد حضارة متجانسة على الرغم من اختلاف أجناسها، فساهمت في الترجمة والمؤلفات والعلوم الفارسية والهندية والإغريقية والمصرية، فجرى تعريب أحكام سقراط وأفلاطون وأرسطو، كما تُرجم من العربية إلى اللاتينية الكثير من المؤلفات العلمية⁽⁷⁾.

وقد ارتبط هذا التطور العلمي بتطور صناعة الورق وتجليد الكتب ونسخها وتصحيحها مما ساعد على انتشار الحضارة العراقية مع غيرها من الحضارات الأخرى، وقد أصبحت بغداد مقصد طلاب العلم من مختلف مناطق العالم الإسلامي، وبخاصة من الأندلس، لتلقي العلم والفقهاء

(1) ابن حبان، ج 1، ص 504.

(2) النوبة: تقع إلى الجنوب من مصر، وهي بلاد واسعة عريضة، انظر: الحموي، ج 5، ص 309.

(3) بالنشأ، أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 196.

(4) عبد الملك بن حبيب السلمى: أخذ العلم عن الغازي بن قيس، وزباد اللخمي، وارتحل إلى مكة فأدى فريضة الحج، وأخذ العلم عن عدد من أصحاب مالك ورجع إلى قرطبة بعلم وفقه كثير، انظر: الذهبي، سير، ج 12، ص (103-102).

(5) الحميدي، ص (408-407)؛ ابن عياض، ج 4، ص 123.

(6) ابن حبان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ص 30.

(7) عاشور، ص 129.

والمعرفة⁽¹⁾، وقد أثر الأمير عبد الرَّحْمَنِ الأوسط الابتعاد عن سياسة من سبقه من الأمراء الأمويين، وهي السياسة القائمة على الابتعاد عن العراق، فبدأ بالأخذ من الحضارة العراقية، وشبه نفسه بالخليفة العباسي في مظهره وملبسه، كما فتح أبواب الأندلس للتجار العراقيين، فامتلت الأندلس بالبضائع والصناعات العراقية⁽²⁾، وشهدت قرطبة في عهده مؤثرات فنية وأدبية عراقية، ومما ساعد على ذلك أنَّ الأمير عبد الرَّحْمَنِ كان محباً للعلم والعلماء فأحسن استقبالهم وأكرم ضيافتهم، وقد نقل علماء العراق وفقهاؤه معهم الكثير من المؤثرات الأدبية والعلمية العراقية، إلى جانب المؤثرات الشامية والحجازية والمصرية. واستمر هذا التقليد إلى عهد الأمير عبد الرَّحْمَنِ الناصر (300-350هـ/912-961م)، الذي أتبع بعض مظاهر التقليد المشرقى بعامة والعراقي بخاصة، فلُقِّب نفسه النَّاصر لدين الله، كما اقتدى بخلفاء بني العباس في الكثير من الأمور العسكرية⁽³⁾.

أما فيما يختصُّ بالمؤثرات العراقية الدينية في الأندلس، فقد كانت قليلة؛ فعلى الرغم من أنَّ البعض يعتبر أنَّ انتشار المذهب المالكي في الأندلس هو من المؤثرات الحجازية، فإن المذهب المالكي الذي انتشر في العراق أيضاً، نقله بعض الفقهاء إلى الأندلس عبر العراق وليس عبر الحجاز والمدينة فحسب⁽⁴⁾، ومن فقهاء الحديث الأندلسيين ورواته؛ أولئك الذين زاروا بغداد ونقلوا معهم مذهب الإمام مالك، ومنهم: يحيى بن يحيى الليثي، وقرعوس بن العباس (ت. 220هـ/835م)⁽⁵⁾، وعيسى بن دينار (ت. 191هـ/807م)⁽⁶⁾، علماً أنَّ هناك كوكبة من فقهاء الأندلس زاروا العراق ودرسوا واطَّلَعُوا على مذهب الإمام ابن حنبل (ت. 241هـ/855م)⁽⁷⁾ ومذهب الإمام أبي حنيفة (ت. 150هـ/767م)⁽⁸⁾، مذهب العباسيين في بغداد، ولكن لم يقدر له الانتشار كثيراً في الأندلس بسبب الخلافات بين الأمويين والعباسيين، ومن الذين زاروا العراق أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج (ت. 330هـ/941م)، الذي رحل وسمع عن أحمد بن حنبل وطبقته، وحدث بالمشرق والأندلس، وصنَّف السُّنَنَ⁽⁹⁾.

- (1) نفسه.
- (2) بروفنسال، ليفي: الحضارة العربية في إسبانيا، ص44؛ عاشور، ص130.
- (3) حلاق، ص42.
- (4) بروفنسال، ص41.
- (5) قرعوس بن العباس: فقيه أندلسي، سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري (ت. 161هـ/778م)، وكان رجلاً ورعاً، إلا أنَّ البعض ضعفه في الحديث، انظر: ابن الفرضي، ج1، ص475؛ الحميدي، ص491.
- (6) عيسى بن دينار: من طليطلة، سكن قرطبة ورحل وسمع من ابن القاسم وصحبه وعاد إلى الأندلس، وأصبحت الفتوى له فيها، وكان متفناً بالمسائل الفقهية، وقيل إنه هرب يوم وقعت الرِّبْض واختفى ثم أمنه الأمير الحكم الرِّبْضِي على نفسه، انظر: ابن الفرضي، ج1، ص426؛ ابن عياض، ج4، ص106.
- (7) أحمد بن حنبل: إمام المحدثين، ولد ونشأ ببغداد، وسمع الحديث من شيوخها، ثم رحل إلى الكوفة والبصرة، وجلس للإفتاء والحديث في بغداد، وهو صاحب المذهب الحنبلي، انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيله والمستفاد، ج6، ص(91-92).
- (8) أبو حنيفة: النعمان بن ثابت، الفقيه الكوفي، وهو مولى تيم الله ثعلبة، ولد ونشأ بالكوفة، أخذ العلم على يد مالك بن أنس وغيره، وهو صاحب المذهب الحنفي، انظر: ابن خلكان، ج5، ص(405-406).
- (9) الحميدي، ص432، 491، 566، 106.

إما فيما يتعلّق بالحياة الأدبيّة فقد رحل الكثير من العلماء الأندلسيّين إلى العراق، ممّا مكّنهم من التزوّد بالثقافة والأدب، وعادوا إلى بلادهم حاملين معهم نفائس المؤلفات في اللغة والعلوم⁽¹⁾، وممن اشتهر منهم: جوديّ التّحوي (ت. 198هـ/813م) الذي رحل إلى العراق، ولقي الكسائي (ت. 189هـ/805م)⁽²⁾، والفراء (ت. 207هـ/822م)⁽³⁾ وغيرهما، وهو أوّل من أدخل كتاب الكسائي إلى الأندلس⁽⁴⁾. ورحل إلى بغداد أيضاً أبو عثمان سعيد بن الفرج (ت. 272هـ/885م) المعروف بالرّشاش، وكان عالماً باللغة والشّعر وقيل إنّه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة، وقد ضُرب به المثل في الأندلس بفصاحته⁽⁵⁾.

وتتابع علماء الأندلس على هذا المنوال في نقل العلوم والمعارف إلى وطنهم، ومنهم أيضاً عبد الله بن محمّد بن قاسم بن هلال القرطبي (ت. 272هـ/885م) الذي وصل إلى العراق، ولقي أبا سليمان داود بن سليمان القياسي (ت. 270هـ/884م)⁽⁶⁾، فكتب عنه كتبه كلّها وأدخلها الأندلس⁽⁷⁾، بالإضافة إلى محمّد بن عبد السّلام الخشني (ت. 286هـ/899م)⁽⁸⁾، الذي رحل من الأندلس قبل سنة 240هـ/854م ودرس في بغداد وسمع وتلمذ على يد أبي عبيد القاسم بن سلام (ت. 224هـ/838م)⁽⁹⁾، وقد أدخل إلى الأندلس علماً كثيراً في الحديث واللغة العربية وآدابها وفنونها⁽¹⁰⁾.

كما رحل الأديب قاسم بن ثابت السرقسطي (ت. 303هـ/915م)⁽¹¹⁾ إلى العراق في طلب العلم، فكان من نتائج رحلته أن جلب معه كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت. 173هـ/789م)⁽¹²⁾، وكان لهذا المعجم تأثير كبير على الأندلسيّين فأقبلوا على قراءته والإفادة

- (1) البيومي، محمد، الأدب الأندلسي بين النّأثر والتّأثير، ص31.
- (2) الكسائي: علي بن حمزة بن عبدالله الأسدي، شيخ القراءات السّبع، وإمام النّحاة، انظر: الصّفي، الوافي بالوفيات، ج21، ص48.
- (3) الفراء: يحيى بن زياد بن عبد الله الأسلمي الديلمي الكوفي، مولى بني أسد، برع بالنّحو والأدب واللغة، وأخذ عن الكسائي، وله العديد من المصنّفات، انظر: ابن خلكان، ج6، ص(176-178).
- (4) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص256.
- (5) ابن الفرضي، ج1، ص232؛ الحميدي، ص328.
- (6) داود بن سليمان القياسي: سمع الحديث والتفسير عن عدد من شيوخ عصره، وله العديد من المصنّفات، انظر: الذهبي، سير، ج13، ص(98-99).
- (7) ابن الفرضي، ج1، ص297.
- (8) محمد بن عبد السّلام الخشني: أبو عبدالله، من أهل قرطبة، رحل إلى البصرة ومكة ومصر، وسمع عن شيوخها، وكان فصيح اللسان، انظر: ابن الفرضي، ج2، ص(23-24).
- (9) القاسم بن سلام: أبو عبيد، اشتغل بالحديث والأدب والفقه، ويقال إنّه أوّل من صنّف في غريب الحديث، وله العديد من المصنّفات، انظر: ابن خلكان، ج4، ص(60-63).
- (10) الحميدي، ص107.
- (11) قاسم بن ثابت السرقسطي: له كتاب في غريب الحديث سمّاه "الدلائل في غريب الحديث"، وحال الموت بينه وبين تمامه فأتته والده، انظر: ابن الفرضي، ج1، ص463؛ الحميدي، ص488.
- (12) الخليل بن أحمد الفراهيدي: كان إماماً في علم النّحو، وهو الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود، وله العديد من المؤلفات، انظر: ابن خلكان، ج2، ص(244،246).

منه⁽¹⁾. وفي عصر الإمارة أدخل العالم الأندلسي فرح بن سلام إلى الأندلس بعض كتب الجاحظ (ت. 255هـ/868م)⁽²⁾، والذي التقى به في العراق وأخذ عنه العلم⁽³⁾، كما سمع يحيى بن أصبغ بن خليل (ت. 305هـ/917م)⁽⁴⁾ من أبي سعيد المسعري كتاب الخلفاء للمدائني (ت. 255هـ/869م)⁽⁵⁾ وأدخله إلى الأندلس⁽⁶⁾.

وكان شعر المحدثين وأخبارهم قد انتشر ببلاد المغرب والأندلس، وكان ممن أدخله إلى الأندلس عثمان بن المثني (ت. 273هـ/886م)⁽⁷⁾ أحد مؤدبي قرطبة، وكانت له رحلة إلى المشرق التقى فيها أبا تمام (ت. 231هـ/845م)⁽⁸⁾، فقرأ عليه شعره وأدخله الأندلس⁽⁹⁾. وكان الشاعر الأديب عباس بن ناصح يمثل برحلاته العلمية أوضح صور التأثير الثقافي للمشرق في الأندلس، فقد التقى الأصمعي (ت. 216هـ/831م)⁽¹⁰⁾ وتردد على كثير من الأحياء العربية في العراق، فانعكس ذلك على ثقافته التي أسهمت بدورها في نشاط الحركة العلمية الأندلسية⁽¹¹⁾، كما أنه لعب دوراً مهماً في نقل التراث الفكري المشرقي إلى الأندلس⁽¹²⁾، كما التقى الشاعر مؤمن بن سعيد (ت. 267هـ/880م)⁽¹³⁾ أبا تمام في بغداد⁽¹⁴⁾.

- (1) ابن الفرضي، ج 1، ص 462.
- (2) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر البصري، له العديد من التصنيفات المفيدة في كل فن، وإليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة، انظر: ابن خلكان، ج 3، ص (470-471).
- (3) ابن الفرضي، ص 451.
- (4) يحيى بن أصبغ: محدث، أخذ العلم عن شيوخ عصره، وكان له رحلة إلى العراق، أخذ الحديث عن عبدالله بن أحمد بن حنبل وطبقته، انظر: الحميدي، ص 553.
- (5) المدائني: أبو الحسن علي بن محمد، ولد سنة 132هـ/749م وسمع من قررة بن خالد (ت. 154هـ/771م) وغيره، وحدث عنه خليفة بن خياط (ت. 240هـ/854م) والكثير، وكان عالماً بالشعر، وله: "خطب النبي ﷺ" و"كتاب أخبار قریش"، انظر: الذهبي، سير، ج 10، ص (402-400).
- (6) ابن الفرضي، ج 2، ص 233.
- (7) عثمان بن مثني: أبو عبدالملك، رحل إلى المشرق ولقي جماعة من الرواة وأصحاب النحو، وقرأ على أبي تمام ديوان شعره، وعاد إلى الأندلس بالكثير من العلم، انظر: السيوطي، ج 2، ص 136.
- (8) أبو تمام الطائي: حبيب بن أوس بن قيس، كان والده نصرانياً ثم أسلم، وكان يمدح الأمراء والملوك، أخذ عن العديد من علماء عصره، برع في الشعر، وشاع أمره في بغداد، وكان الناس يجتمعون كل جمعة بجامع بغداد ليسمعوا شعره، انظر: الذهبي، تاريخ، ج 17، ص (125-126).
- (9) الزبيدي، ص 266.
- (10) الأصمعي: أبو سعيد، عبد الملك بن قريب الباهلي، كان صاحب لغة ونحو وإماماً في الأخبار والنوادر والغرائب، سمع عن شعبة بن الحجاج (ت. 160هـ/777م) وروى عنه كثيرون، وله العديد من المصنفات، كما كان شديد الانتباه في تفسير الكتاب والسنة، انظر: ابن خلكان، ج 3، ص (170-172).
- (11) ابن الفرضي، ج 1، ص 387.
- (12) ابن سعيد المغربي، ج 1، ص 45.
- (13) مؤمن بن سعيد: كان جدّه إبراهيم من موالى الأمير عبد الرحمن الداخل، ولد في قرطبة وفيها نشأ، وذاع صيته في الشعر، وقد علا نجمه في أيام الأمير محمد، انظر: ابن سعيد المغربي، ج 1، ص 132.
- (14) ابن سعيد المغربي، ص 132.

أما العلوم الرياضيّة؛ فقد شهدت تقدّماً واضحاً في القرن الثّالث الهجري/الثّاسع الميلادي، فظهر عددٌ من العلماء الأندلسيّين الذين أخذوا علومهم عن بلاد المشرق وجمعوا بين دراسة علم الحساب والعدد والنّجوم، وألّفوا فيها العديد من الكتب القيّمة التي جاءت بفضل الجهود الكبيرة التي بذلوا في الاطّلاع على المصادر الهندية والإغريقية أثناء وجودهم في المشرق، واعتمدوا في دراسة الهندسة على كتاب إقليدس، الذي يسمّى أيضاً بكتاب الأصول أو كتاب الأركان، وقد تُرجم في المشرق في عهد أبي جعفر المنصور، ثم أسهم الأندلسيون في الدّراسات التي اعتمدت عليه⁽¹⁾.

وقد اشتهر من علماء بغداد الذين قصدوا الأندلس في عصر الإمارة أبو اليسر إبراهيم بن محمّد الشيباني الرّياضي(ت. 298هـ/910م)، وكان أديباً ورياضياً، بغدادي الأصل درس على يد عدد من علماء بغداد المرموقين؛ ومنهم الجاحظ والكثير غيره، وقد قصد الأندلس طلباً للرّزق والثّقافة في عهد الأمير محمّد بن عبد الرّحمن(273-238هـ/852-886م) الذي استقبله بترحاب، وأكرمه، ومنحه ألف دينار تقديراً لعلمه وشهرته عند أهل الأندلس⁽²⁾. وقد تأثرت الفلسفة الأندلسية بالمشرق، ومن المعتقد أنّ محمد بن مسرّة(ت. 319هـ/931م) قد تأثر بالأراء الاعتزالية خلال وجوده في المشرق، لا سيّما البصرة التي عرفت باستقطاب زعماء الاعتزال، وقد عمد ابن مسرّة إلى نشر مبادئ الاعتزال في الأندلس، وذلك بعد عودته من المشرق، كالقول بالقدر والاستطاعة والقول بالوعد والوعد⁽³⁾.

أمّا من الناحية الفنيّة فقد اشتهرت بغداد بالموسيقى والغناء، ووفد منها إلى الأندلس الكثير من أهل هذا الفن، وبدأت الموسيقى العراقيّة تنتشر في مدن الأندلس⁽⁴⁾، وفي أوائل عهد الأمير عبد الرّحمن الأوسط وصل إلى قرطبة المغنيّ العراقي أبو الحسن علي بن نافع الملقّب بزرياب(ت. 243هـ/857م)، الذي نقل إلى الأندلس المقامات الموسيقيّة العراقيّة، فطغت مدرسته على مدرسة الحجاز الموسيقيّة، وقد علّم الأندلسيّين طرقاً موسيقيّة جديدة في كيفة النّاليف والأداء⁽⁵⁾، ونظراً لأهميّة مدرسة زرياب الفنيّة فقد ألف أبو الحسن أسلم بن أحمد بن سعيد كتاباً مهمّاً في أغانيه⁽⁶⁾، كما كان لزرياب أثرٌ واضح في الحياة الاجتماعيّة؛ فقد نقل معه أسلوب تنظيم الألبسة والأطعمة وترتيبها⁽⁷⁾. وأما عبد الله بن حسين بن عاصم النّفقي القرطبي؛ فرحل إلى بغداد

(1) ذنون طه، ص(196-197).

(2) المقري، ج3، ص134.

(3) ابن الفرضي، ج2، ص55.

(4) المقري، ج3، ص128.

(5) الكزبري، سلمى، بصمات عربيّة ومشرقيّة في الأندلس، ص 28؛ وات، موانتغمري، في تاريخ إسبانيا الإسلاميّة، ص84.

(6) الحميدي، ص245.

(7) عاشور، ص(132-133).

ولقي فيها الفئان مخرق المغني (ت. 231هـ/846م)⁽¹⁾، أحد ثلاثة مغنين اشتهروا بالطرب في عصر الخليفة هارون الرشيد (193-170هـ/786-809م)، وكان شاعراً جيداً، وكان من جلساء الأمير الأندلسي محمد بن عبد الرحمن الأوسط⁽²⁾.

ونستنتج مما سبق ذكره مدى التأثير والتأثر العلمي بين الأندلس وبلاد المغرب والمشرق خلال عصر الإمارة، التي شهدت الكثير من مظاهر الاقتباس من البلاد المختلفة، ثم ما لبث هذا التأثير أن قلَّ بعد فترة من الزمن، لتأخذ الأندلس طريقها نحو استقلال الشخصية العلمية خلال عصر الخلافة، وذلك لإبراز ذاتها بين بقية الأقطار الإسلامية، وبدأت الحركة العلمية الأندلسية تتخذ قالباً جديداً وشكلاً مغايراً عما اقتبسته من بلاد المغرب والمشرق خلال القرون الثلاثة الأولى.

الخاتمة

بعد أن تمَّ بعون الله الانتهاء من كتابة هذه الدراسة، فإنه يمكن إجمال نتائجها في النقاط الآتية:

- تأثرت بلاد الأندلس بالمشرق الإسلامي في كلِّ مجالات نهضتها العلمية، وبخاصةً الدينية منها، فأول ما عرفت من المذاهب: المذهب الأوزاعي ثم المالكي، وكلاهما مشرقى المنبع، وكذا بالنسبة للعلوم الدينية الأخرى كعلم القراءات، ولعلَّ من أسباب ذلك؛ أنَّ أمويي الأندلس كانوا شاميين الأصل والثقافة، ولهذا حرصوا أن ينقلوا إلى بلادهم كلَّ ما هو شامي، وممَّا دفعهم إلى ذلك أيضاً عداؤهم للعباسيين أتباع المذهب الحنفي، والزيارات العلمية إلى المدينة المنورة، وكثافة العنصر الحجازي والشامي في الأندلس، وتشابه أنماط الحياة بين الأندلسيين وكل من الحجازيين والشاميين.
- لم يقتصر تأثير الأندلسيين بالشاميين على جانب ثقافي بعينه، بل شمل معظم الجوانب، فقد تركت العلاقات العلمية بين الأندلس والشام بصمتها في الحياة الأدبية أيضاً، فكان الشعر الأندلسي كلاسيكياً يحاكي شعراء المشرق، ويبدو أنَّ الملامح الشامية للحضارة العربية دخلت الأندلس في طور التأسيس من عصر الإمارة، وأنَّ الملامح الحجازية دخلت في طور التوطيد، كما بدت الملامح العراقية في عصر الاستقرار والازدهار من عصر الإمارة وما تلاه.
- شكَّلت بلاد المغرب الإسلامي عامَّةً، ومدينتي القيروان وفاس على وجه الخصوص رافداً مهماً من روافد الحياة العلمية في الأندلس، وأسهم الأندلسيون بدورهم في إثراء مكونات الحضارة المغاربية بعد استقبال الأدارسة للفارين من وقعة الرِّبض وإسكانهم في مدينة جديدة إلى جانب مدينة فاس، واضطلع الرُّسَميُّون بدور مهمَّ في تعزيز الصَّلَاتِ التَّقَافِيَّةِ بَيْنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ وَالْمَغَارِبَةِ.
- لعب العلماء المصريون دور الوسيط في نقل القواعد المذهبية المالكية إلى بلاد المغرب ومن ثمَّ إلى الأندلس، وكانت مصر أوَّل من وضع حجر الأساس لعلم التاريخ والتدوين في الأندلس.

(1) مخرق المغني: أبو المهنا، كان بارعاً في الغناء، عمل لدى الخليفة هارون الرشيد، وكان الخليفة يجعل بينه وبين مغنيه ستارة، فلما سمع مخرق أزالها، أنظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج2، ص260.

(2) ابن سعيد المغربي، ج1، ص101.

— بدأت المؤتمرات العراقية في الأندلس تظهر بوضوح منذ أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وذلك عندما أصبحت بغداد مدينة حضارية عالمية، يرحل إليها طلاب العلم من مختلف مناطق العالم الإسلامي، فشهد العراق موجات أندلسية لتلقي العلم والمعرفة، بتشجيع من الأمراء الأمويين كعبد الرحمن الأوسط، الذي فتح أبواب الأندلس أمام العلماء العراقيين، فشهدت الأندلس في عهده مؤتمرات علمية وأدبية وفنية عراقية واضحة، إلى جانب المؤتمرات الشامية والحجازية والمصرية.

Sourcebooks & References (Arabic & English)

- The Quran
- Abu Al-Arab, Muhammad. (333H.\944A.D): *Tabakat Ulama' Afriqiyya*, Dar Al-kitab A-Llubnani, Beirut, n. d.
- Abu Al-Fadl, Muhammad: *Dirasat fi Tarikh wa Hadarat Al-Andalus*, Dar Al-Ma'rifa Al-Jami'yya, Alexandria, 1996.
- Abu Mustafa, Kamal: *Tarikh Madinat Palencia Al-Andalusiyya fi Al-Asr Al-Islami*, Markaz Alexandria Lilkitab, Alexandria, 1980.
- Al-Ameri, Muhammad: *Mazaher Al-Ebda' Al-Hadari fi Al-Andalus*, Dar Ghaida, Amman, 2012.
- Al-Anani, Muhammad: *Tarikh Al-Adab Al-Andalusi*, Dar Al-Ma'rifa Al-Jami'yya, Alexandria, 1999.
- Al-Balathuri, Ahmad Bin Yahaya(297H.\892A.d): *Fotuh Al-Boldan*, Mu'assat Al-Ma'aref, Beirut, 1987.
- Al-Bayumi, Muhammad: *Al-Adab Al-Andalusi*, 1st. ed., Maktabat Al-Dar Al-Arabiyya Lilkitab, 2008.
- Al-Bishri, Sa'd: *Alhayat Ali'Imiyya fi Asr Al-Khilafafe fi Al-Andalus*, Master Thesis, Jamia't Um Alqura, Saudi Arabia, 1982.
- Al-Dabbi, Ahmad. (599H.\1202A.D): *Bughiat Al-Multamis fi Tarikh Rijal Ahl Al-Andalus*, 2vols., Dar Al-Kitab Al-Masri, Cairo, 1989.
- Al-Daqqh, Omar: *Malameh Al-She'r Al-Andalusi*, Dar Al-shoruq, Beirut, 1975.
- Al-Fayyumi, Muhammad: *Tarikh Al-Falsafa Al-Islamiyya fi Al-Maghreb wa Al-Andalus*, 1st. ed., Dar Al-Jeel, Beirut, 1997.
- Al-Ghazali, Muhammad. (505H.\1111A.D): *Ihya' Olum Al-Deen*, 1st. ed., Dar Ibn Hazm, Beirut, 2005.

- Al-Hamawi, Yaqut. (626H.\1229A.D): *Mu'jam Albuldan*, 5 Vols., Dar Sader, Beirut, 1977.
- Al-Harut, Bilal: *Suar Al-Akhar fi Adab Alrehlat Al-Andalusiyya*, Doctorate Thesis, Mu'ta University, Jordan, 2008.
- Al-Himiari, Muhammad. (900H.\1494A.D): *Al-Rawd Al-Mi'tar fi Khabar Al-Aktar*, 2nd. ed., Maktabat Lubnan, 1984.
- Al-Humaidi, Muhammad. (488H.\1295A.D): *Jathwat Almuqtabis fe Tarikh Olama' Al-Andalus*, 1st. ed., Dar Al-Gharb Alislami, Tunis, 2008.
- Al-Kazbari, Salma: *Basamat Arabiyya wa Mashriqiyya fi Al-Andalus*, Wazarat Al-Thaqafa, Damascus, 1992.
- Al-Khishni, Muhammad bin Harith. (361H.\971A.D): *Akhbar Al-Fokaha' Walmuhaddethin*, Madrid, 1999.
- Al-Maqari, Muhammad. (1041H.\1631A.D): *Nafh Al-Teeb min Ghosn Al-Andalus Al-Rateeb*, 8vols., Dar Sader, Beirut, 1968.
- Al-Nabahi, Abdullah. (792H.\1390A.D): *A-Marqaba Al-Olia fi man Yastahik Al-qada' wa-Alfitya*, 5th. ed., Dar Al-Afaq, Beirut, 1983.
- Al-Osaimi, Iman: *Alulaqat Alilmiyya Bein Al-Andalus wa Madinat Fas min Bidayat Al-Qarn Althaleth Hatta Socoot Granada*, Master Thesis, Um Al-Qora University, Mecca, 2009.
- Al-Qifti, Ali. (646H.\1248A.D): *Akhbar Al-Olama' bi Akhbar Al-Hokama*, Matba'at Al-Sa'ada, Cairo, 1908.
- Al-Razi, Abdul-Rahman. (327H.\938A.D): *Al-Jarh wa Al-Ta'deel*, 9vols., 1st. ed., Dar Ihya' Al-Turath, Beirut, 1953.
- Al-Safadi, Salah Al-Deen. (764H.\1363A.D): *Alwafi Bilwafiat*, 29vols., 1st. ed., Dar Ihia' Al-Tutath, Beirut, 2000.
- Al-Sha'rawi, Ahmad: *Al-Umawiyyun Umara' Al-Andalus*, Dar Al-Nahda Al-Arabiyya, Cairo, 1969.
- Al-Suyuti, Abdul-Rahman. (911H.\1505A.D): *Bughyat Al-Wo'afe Tabakat Al-Lughawiyyin wa Al-Nohah*, 2vols., 2nd. ed., Dar Alfikr, Beirut, 1979.
- Al-Thahabi, Shams Al-Deen. (748H.\1474A.D): *Sear A'lam Al-Nubala'*, 7th. Ed., Mu'assasat Al-Risala, Beirut, 1990.

- *Tarikh Al-Islam*, 51 vols., 1st. ed., Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, 1991.
- Al-Zubaidi, Muhammad. (379H.\989A.D): *Tabakat Al-Nahawiyyin wa A-Lughawiyyin*, 2nd. ed., Dar Al-maa'ref, Cairo.
- Ashoor, Sa'id; Al-Abbadi, Ahmad; Abd-Al-Hamid Sa'd: *Dirasat fi Tarikh Al-Hadara Al-Islamiyya*, 2nd. ed., That Al-Salasel, Kuwait, 1986.
- Boobayeh, Abdul-Qader, *Alakat Al-Rostomiyyeen Bilemara Al-Umawiyya fi Al-Andalus*, Majallat Al-Torath Al-Arabi, Oran University, vol. 99-100, n. d.
- Daif, Ahmad: *Balaghat Al-Arab fe Al-Andalus*, 2nd. ed., Dar Al-Ma'aref, Tunis, 1998.
- Hallaq, Hassan: *Al-Alaqat Al-Hadaria Bein Al-Sharqwa Al-Gharb fi Al-Osur Al-Wosta*, 1st. ed., Aldar Al-Jamieya, Beirut, 1986.
- Husein, Hamdi. (2005). *Tarikh wa Hadarat Al-Maghreb wa Al-Andalus*, Dar Alma'rifa.
- Ibn Al-Abbar, Muhammad bin Abdullah. (658H.\1260A.D): *Al-Takmila Likitab Al-Sila*, 4 vols., Dar A-Fikr, (1995).
- Ibn Al-faradi, Abdullah. (403H.\1012A.D): *Tarikh Olama' Al-Andalus*, 2 vols., 1st. ed., Dar Algharb, Tunis, (2008).
- Ibn Al-Khatib Al-Baghdadi. (463H.\1071A.D): *Tarikh Madinat Al-Salam*, 13 vols., 1st. ed., Dar Al-Gharb Al-Islami, (2001).
- Ibn Al-Qutiyya, Muhammad. (367H.\977A.D). *Tarikh Eftitah Al-Andalus*, 1st. ed., Dar Al-kitab Al-Misri, Cairo, (1981).
- Ibn Athari, Ahmad. (695H.\1295A.D). *Al-Baian Al-Mughreb fi Akhbar Al-Andalus wa Al-Maghreb*, 4 vols., 2nd. ed., Dar Althaqafa, Beirut, 1980.
- Ibn Habban, Muhammad. (354H.\965A.D). *Almajruhin min Almuhammadithin*, 2 vols., 1st. ed., Dar Alsumai, (2000).
- Ibn Hayyan, Hayyan bin Khalaf. (469H.\1076A.D). *Al-Moktabis min Anba' Ahl Al-Andalus*, Dar Alkitab Al-Arabi, Beirut, (1973).
- Ibn Iyad, Iyad. (544H.\1149A.D). *Tarteeb Al-Madarek*, 8 vols., 2nd. ed., Wazarat Al-Awqaf Al-Maghribiyya, (1983).
- Ibn Khillikan, Shams Al-Deen. (681H.\1282A.D). *Wafayat Al-A'yan wa*

- Anba' Abna' Al-Zaman*, 8vols., Dar Sader, Beirut, (1977).
- Ibn Khuldun, Abdul-Rahmanbin. (808H.\1406A.D). *Tarikh Ibn Khuldun*, 8vols., Dar Al-Fikr, Beirut, (2001).
 - Ibn Manthur, Muhammad. (711H.\1311A.D). *Lisan Al-Arab*, 15vols., Dar Sader, Beirut, n. d.
 - Ibn Saed, Ali bin Musa. (685H.\1286A.D). *Al-Mughreb fi Hula Al-Maghreb*, 2vols., 3rd. ed., Dar Al-Ma'aref, Cairo.
 - Ibn Taghri Bardi, Jamal Al-Din. (874H.\1470A.H). *Al-Nojum Al-Zahira fi Moluk Misr Walkahira*, 16 vols., Wazarat Al-Thaqafa, Cairo, (1963).
 - Palencia, Angel. *Tarikh Al-Fikr Al-Andalusi*, trans.: Husein Mo'nis, maktabat Al-Thakafa Al-Deenya, Cairo, n. d.
 - Provencal, Levi. (1994). *Al-Hadara Al-Arabia fi Espania*, trans.: Al-Taher Makki, 3rd. ed., Dar Alma'aref, Cairo.
 - Rostum, Muhammad. (2009). *Al-Kotob Al-Mashriqiyya wa Al-Osul Al-Nadira fi Al-Andalus*, 1st. ed., Dar Ibn Hazm, Beirut.
 - Salem, Al-Sayyed. (1982). *Tarikh Al-Maghreb fi Al-Asr Al-Eslami*, Mu'asasat Shabab Al-Jami'a, Alexandria.
 - Shawesh, Muhammad. (1966). *Al-Dorr Al-Waqqad*, 1st. ed., Al-Matba'a Al-Alawiyya, Mistghanem.
 - Thannun, Abdul-Wahid. (2008). *Dirasat Andalusia*, Dar Al-Madar Al-Islami, Beirut.
 - Watt, Montgomery. (1998). *Fi Tarikh Ispania Al-Islamia*, 2nd. ed., sharikat Al-Matbu'at, Beirut.
 - Yusuf, Awatef. (1996). *Al-Rihlat Al-Maghribiyyawa Al-Andalusia*, Maktabat Al-Malek Fahd Al-Wataniyya, Al-Riyadh.